دروس من لبنان: إعادة التفكير في حركات التحرر الوطني

حميد دباشي

- ١ -

«ملاحظة: لا مباريات مونديال في هذا الوقت.» كان توقيتُ الندوة التي نظّمها سماح إدريس في نادي الساحة عند السابعة والنصف مساءً من يوم ٢٠٠٦/٦/٢٩ محسوبًا لأنّه لا يتزامن مع أيّ من مباريات كأس العالم ربع النهائية في ذلك العام. وكانت الجولةُ نصفُ النهائية قد انتهت في ٦/٢٧ بهزيمة غانا على يد البرازيل (٣ ـ ٠)، وإسبانيا على يد فرنسا (٣ ـ ١). كان اللبنانيون (والفلسطينيون) سعداءَ حقّاً، بدليلِ كثرةِ الأعلام البرازيلية والفرنسية على امتداد مناطق بيروت السكنية والتجارية (بل والمخيّمات الفلسطينية أيضًا)، وسط شبهِ غيابٍ لأعلام غانا أو إسبانيا وراح الناس يستعدّون ليوم ٦/٣٠، حيث تقرَّر أن تُنازلَ ألمانيا الأرجنتينَ، وإيطاليا أوكرانيا. لذا خَطّط سماح إدريس، رئيسُ تحرير مجلة الآداب وأحدُ مؤسِّسي نادي الساحة، لعقد هذه الندوة بين ٤ مباريات حاسمة، أملاً في جلب أكبر جمهورٍ ممكن. وقد كان على حقّ: فقاعةُ «نادي الساحة» المتوسّطةُ الحجم في وطى المصيطبة ضاقت بروّادها حتى اضطرّ بعضُهم إلى الوقوف هذا وضَمّت الندوةُ ثلاثةَ متحدِّثين أحمد دلاّل ورانية المصري وأسعد أبو خليل ـ وهم مثقفون وأكاديميون لبنانيون مميّزون، تولّى كلٌّ منهم تباعًا الحديثَ عن الإمبراطورية الأميركية واستراتيجياتِ التصدّي لها.

- ٢ -

كانت الثقافةُ البهيجةُ والخفّةُ اللّعُوبُ المتمثّلتان في تناوُلِ أكثر المصائب السياسية في التاريخ المعاصر إلحاحًا (وأعني الإمبراطورية الأميركية)، والتنبُّهُ في الوقتِ نفسِه إلى إرضاء الأهواء التي تثيرها مباريات كأس العالم، تستند جميعُها إلى أريحيّةِ نفسٍ لا تُبَزّ، ولا يستطيع أن يَسْبرَ غورَها ويَمْتلكها ويُظْهرَها إلاّ بضعُ ثقافاتٍ مُدُنيةٍ في كوكبنا هذا إنّ الامتياز الكوزموبوليتاني والثقافةَ السياسيةَ الحيّة في لبنان، وكلاهما كان واضحًا لأيّ زائرٍ مرهَفٍ إلى بيروت قبل حزيران ٢٠٠٦، ينبغي عَزْوُهما إلى الشجاعة الأخلاقية والقياسية لبلدٍ قُيِّض له اليومَ أن يَلْعب دورًا محوريّاً في تاريخ المنطقة.

لعلّ أبرزَ خاصيّةٍ في هذه الروح المُدُنية الكوزموبوليتانية في الثقافة السياسية اللبنانية هي أنّها متجذِّرةٌ في تجاربَ تاريخيةٍ شاقّةٍ لوطنٍ عانى الأمَرّيْن طوال عقود من هجراتٍ فلسطينيةٍ متتالية، واجتياحاتٍ إسرائيليةٍ وحشية، واحتلالٍ سوريّ عدائي، وتدخُّلٍ إيرانيٍّ ماكر، ونزاعٍ طائفيٍّ مزمن؛ تعزِّزها جميعَها فوارقُ طبقيّةٌ صارخة، وتستند إلى خلفية مخيّماتٍ فلسطينيةٍ متهدِّمة وطبقةٍ تحتيةٍ ناشئةٍ مكوّنةٍ من السيريلانكيين وغيرهم من «العبيد» المعاصرين. وعليه، فإنّ لبنان يَنْضح ثقافةً سياسيةً كوزموبوليتانيةً لا برغم الفواجع التي يضجّ بها تاريخُه الحديث، وإنّما من خلال تلك الفواجع

بحلولِ تموز ٢٠٠٦، وقبل أيام فقط من انفلات الوحشية الإسرائيلية الهائلة ضدّ اللبنانيين، كانت مُدُنيةُ لبنان الكوزموبوليتانية مرسومةً على محيّاه ـ من أشدّ فقرائه ومحروميه إلى أثرى أحيائه فعلى امتداد خمس سنوات ـ من الهزيمة الإسرائيلية المخزية في جنوبي لبنان عامَ ٢٠٠٠ إلى اغتيال رئيس الوزراء رفيق الحريري سنة ٢٠٠٥ ـ تمكّنَ هذا الأخيرُ من استدراج استثماراتٍ أجنبيةٍ هائلة، في الوقت الذي بدأت فيه الميولُ الكوزموبوليتانية داخلَ الثقافة السياسية اللبنانية تمارس سحرَها، وراحت الفئاتُ السياسيةُ المتقاتلة تعمل معًا من أجل بناءِ حكومةِ وفاقٍ وطني عقب عقودٍ من الحرب الأهلية المدمِّرة. غير أنّ البدء بمرحلة إعادة الإعمار بعد الحرب لم يَعْنِ أنّ إسرائيل كانت ستسمح لجارها بسلوك هذا الدرب؛ ولعلّ اغتيالَ إيلي حبيقة عام ٢٠٠٢، وهو أحدُ رموزِ مجازر صبرا وشاتيلا عام ١٩٨٢، بعيْد كشفِه نبأَ توفُّره على تسجيلات تَدْحض روايةَ إسرائيل عن المجازر، أَظْهرَ أنّ تدخّل إسرائيل الغدّارَ في الشؤون اللبنانية لم ينتهِ بمجرّد هزيمة جيشها وانسحابه من لبنان عامَ ٢٠٠٠. بل هي هدّدتْ لبنان بعملٍ عسكري في أيلول ٢٠٠٢ إنْ أصرّ اللبنانيون على الانتفاع بمياه نهر الوزّاني ثم اغتال الإسرائيليون أحدَ أعضاء حزبِ اللّه في آب ٢٠٠٣ هذا علاوةً على بقاء مئات المجاهدين اللبنانيين في السجون الإسرائيلية، ورفضِ إسرائيل تسليمَ

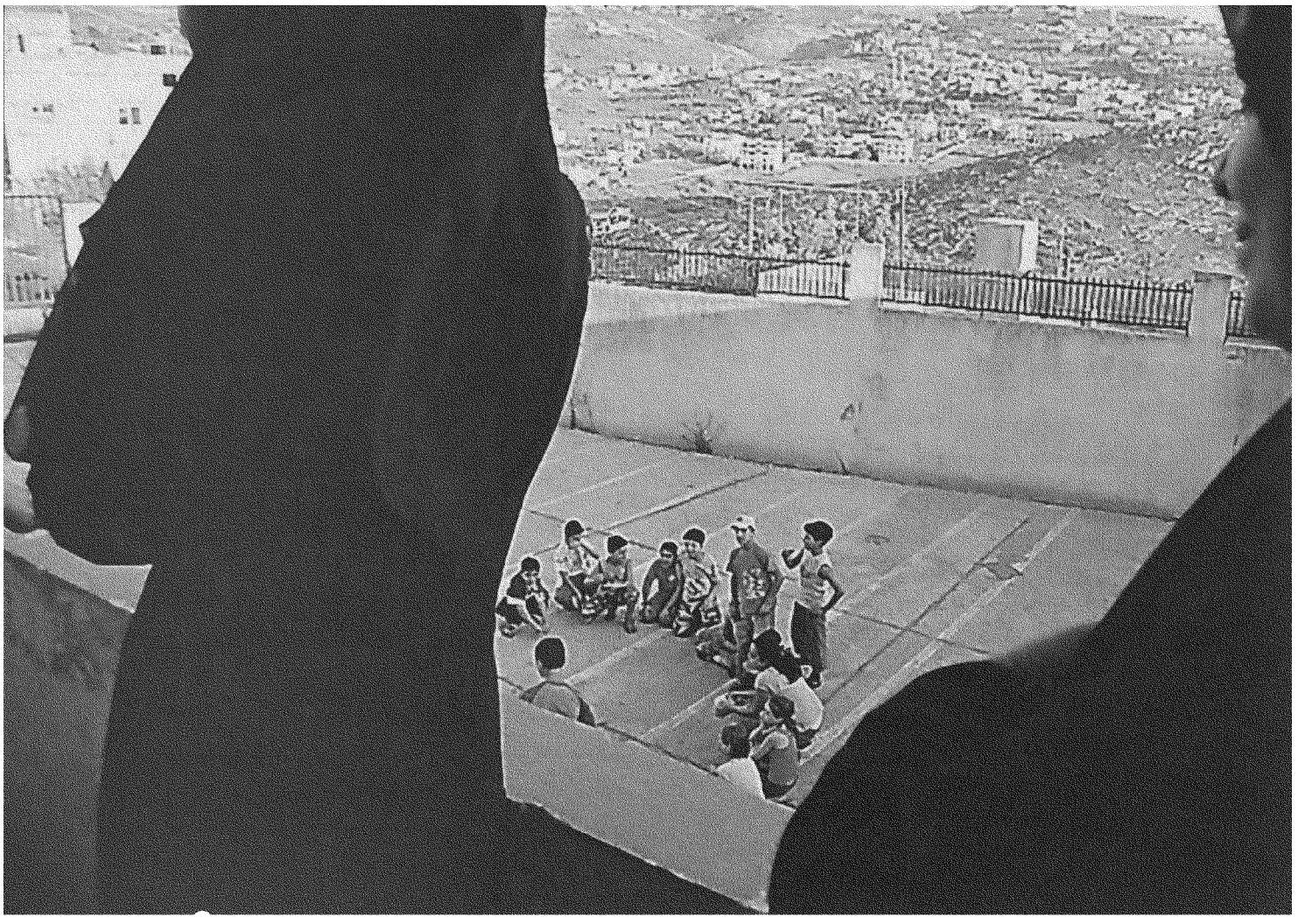

غابرييلا بوليسوڤا

آولاد يلعبون في سلعا على مرآى من المعلمات

خارطةِ الألغام التي خلّفتْها في الجنوب عقب هزيمتها التاريخية، ومواصلةِ احتلالها غيرِ الشرعي لمزارع شبعا اللبنانية.

لطالما كان لبنان صورةً عن عيوب العالم العربي والإسلامي، وعن وعوده المحتملة أيضًا؛ ذلك أنّ السياسة فيه تتراوح بين الطائفية المدمِّرة والكوزموپوليتانية النابضةِ بالحياة. وقد دَفَعَتْ سنةُ ٢٠٠٥ بهذه المفارقة التاريخية إلى ذروتها؛ فهذه السنة حَمَلَتْ إلى لبنانَ الأسى والتضامنَ معًا المطالبةَ الواضحةَ بالحرية والديموقراطية، والخسائرَ الباهظةَ ثمنًا لتحقيق هذيْن المثاليْن. ففي شباط ٢٠٠٥ قُتل الرئيس رفيق الحريري بسيارةٍ مفخَّخة في بيروت اغتيال الحريري، الذي كان محطَّ إعجاب مجتمع رجال الأعمال اللبنانيين والطبقة الوسطى ومحطَّ انتقاد اليسار التقدُّمي، أَشْعَلَ المشاعرَ المؤيِّدةَ والمعارضةَ لسوريا وأدّى إلى استقالة حكومة عمر كرامي. وبحلول آذار ٢٠٠٥ كان مئاتُ آلاف اللبنانيين قد شاركوا في تظاهراتٍ معارضةٍ ومؤيِّدةٍ للسوريين في بيروت. وبعد شهور من الضغوط على سوريا لسحب قواتها من لبنان، انصاع الرئيس بشّار الأسد لإرادة اللبنانيين الجماعية ـ التي صادقتْ عليها الأممُ المتحدة واستغلّتها أميركا وفرنسا ـ فأَنْهى الاحتلالَ السوريَّ للبنان غير أنّ ذلك لم يكن خاتمةَ الأوجاع اللبنانية. ففي حزيران ٢٠٠٥ اغتيل سمير قصير، وهو صحافيٌّ بارز كان حادّاً في نقده للوجود السوري في لبنان ولكنّه صَمَتَ ـ إلى حدٍّ يثير الفضول ـ عن أشكالٍ أخرى من الاضطهاد والاحتلال في المنطقة

ما وُصِف بأنّه «ثورةُ الأرز» من قِبل المحافِظين الأميركيين الجُدد، وبأنّه ثورةُ «غوتشي» من قِبل اليسار التقدُّمي اللبناني، واصل مسارَه. ومالت الطبقةُ البورجوازيةُ اللبنانية إلى خطٍّ سياسيّ موالٍ لأميركا وفرنسا، ومعادٍ لحزب اللّه والفلسطينيين وفي هذه الظروف فاز تحالفٌ معادٍ لسوريا، بقيادة سعد الحريري، بمعظم مقاعد المجلس النيابي، الذي انتخب رئيسَ وزراء متحالفًا مع الحريري، هو فؤاد السنيورة لكنّ الأوضاع السياسية في لبنان كانت ماتزال في مرحلةِ المَطْهر. ثم قُتِل جورج حاوي، الأمينُ العامّ الأسبق للحزب الشيوعي اللبناني، وكان معاديًا للسياسة السورية. ولكنْ، رغم كلّ هذا الاضطراب، فقد حصل اجتماعٌ في تموز ٢٠٠٥ بين السنيورة والأسد، اللذيْن بدأا العملَ من أجل علاقاتٍ ثنائيةٍ جديدة غير أنّ الصحافي النائب جبران تويني المعادي لسياسة سوريا اغتيل هو أيضًا ومع ذلك، وأيّاً مَنْ كان وراء هذه الاغتيالات، فإنّه يبدو أنّ الديموقراطية البرلمانية اللبنانية الهشّة قد استطاعت أن تُبقي لبنانَ غيرَ ممزَّق. ولم يكن ذلك بالرغم من السياسات الفئوية فيه بل ـ وهنا المفارقة ـ بسببها.

دروس من لبنان: إعادة التفكير في حركات التحرّر الوطني

- ٣ -

عشيّةَ شنّ إسرائيل هجومَها الوحشي على لبنان في منتصف تموز كانت ثمة أسبابٌ كثيرةٌ للقول بأنّ لبنان على طريق تجاوُزِ آلامه التاريخية، وبربرياتِ جاره الصهيوني السابقة، والحربِ الأهليةِ الشريرة التي غذّاها هذا الجارُ عمدًا. فلقد انتهى الاحتلالُ الإسرائيلي عامَ ٢٠٠٠ وهو يجرُّ أذيالَ العار، واستنفَدَت الحربُ الأهليةُ انقساماتِها الفئويةَ الداخلية، وبقي لبنانُ واحدًا روحًا وجسدًا، وانسحب السوريون، وتظاهر ثوريُّو «غوتشي» بمئات الآلاف في آذار ضدّ سوريا فكَشفوا عن حضورهم الكبير ومثلَهم فعلَ مئاتُ الآلاف من المحرومين ـ وبخاصةٍ الشيعة ـ فبان حجمُ الطرفيْن كبيرًا يُحْسَبُ له حساب. وبدا أنّ ثمة توازنًا مقبولاً بين الطبقات والمصالح، وائتلافًا من الممثلين السياسيين عابرًا للفالق السياسي. كما ظهر أنّ أمام اللبنانيين طريقًا كفاحيّاً يعزّز إمكانيةَ بناءِ اقتصادٍ فاعلٍ وثقافةٍ سياسيةٍ نابضةٍ بالحياة. إذن، وأيّاً ما كانت إنجازاتُ رفيق الحريري وإخفاقاتُه، فقد بدت بيروتُ ناضحةً بالثقة: احتشدتْ محلاّتُها بالبضائع والزبائن، وامتلأتْ مخازنُها بالفواكه والخضار، وازدحمتْ نواديها بالنشاطات الثقافية والفنية، وغصّت شاشاتُها بالبرامج التلفزيونية.

كان ثمة فارقٌ واضح، صراعٌ يجري قُدُمًا، بين بورجوازيةٍ نشطةٍ وطبقةٍ عاملةٍ معانية وعَبْر هذا الصراع كان ثمة تاريخٌ يتشكّل، وحركاتٌ سياسية تتكوّن، وهياكلُ إيديولوجية تُبنى، ووطنٌ يُجْمَع من مشاعرَ مشتركةٍ متناثرةٍ هنا وهناك.

مع حلول نيسان ٢٠٠٥ غادرت القواتُ السوريةُ لبنان، وازداد الضغطُ على حزب اللّه من أجل التخلّي عن سلاحه بعد أن صار الحزبُ جزءًا من حكومةٍ ما بعد اغتيال الحريري. كما بان الضغطُ واضحًا من أجل دفعه إلى فكّ ارتباطِه الضارّ بالجمهورية الإسلامية في إيران «شكرًا جزيلاً، لا نريد دولةً إسلاميةً في لبنان» ـ كان ذلك لسانَ حالِ أكثرِ اللبنانيين. نعم، إنّ جمهورية إسلامية واحدة في إيران كانت تكفي لتكونَ بجوارِ دولةٍ يهوديةٍ تُشبه الإمبراطوريةَ المسيحيةَ وترجِّع أصداءَ الأصولية الهندوسية. لم يكن لبنانُ ليُظهر أيّةَ إشاراتٍ إلى قدرته على تحمُّل مثل هذه الفواجع على العكس: كان مليئًا بوعودِ بناءِ ثقافةٍ توفيقيةٍ كوزموبوليتانية هي تمامًا نقيضٌ للكوابيس الثيوقراطية الأحادية («المطهَّرة» عرقيّاً). وكان يكفي أن تمشي على الكورنيش بين مقهى الروضة وتمثالِ جمال عبد الناصر في عين المريسة، لتَلمَحَ المحجَّبات يوازين النساءَ بالبيكيني عددًا، ولتَسمعَ السياراتِ تَصدح بأغاني عبد الحليم حافظ وفيروز، ولتشاهدَ النرجيلاتِ عامرةً، ولتلحظَ الشاشات الضخمة وقد تحلّقَ حولها الناسُ ليروا كيف «نطحَ» زين الدين زيدان المُدافعَ الإيطاليَّ ماركو ماتيراتزي لم يكن في لبنان ما يشير إلى أنّه سيكون مَعْقِلاً للتعصُّب الديني على غرار الدولة اليهودية، أو الجمهورية الإسلامية، ناهيك بالمستعمرة المسيحية التابعة للإمبراطورية الأميركية ولئن بدت رؤيتي هذه إلى لبنان ما قبل الغزو الجديد بريئةً بعضَ الشيء، فإنّ هذه البراءة هي تحديدًا ما كان يستعدّ الوحشُ الأوروبيُّ الهائجُ المسمّى «إسرائيل» للانقضاضِ عليه وقَتْلِه

- ٤ -

إنّ نظرةً سريعةً إلى الوحشية الشريرة التي استخدمتْها إسرائيلُ لغزو لبنان تبيِّن أنّ هذا الغزو ١) كان مخطَّطًا له منذ زمن؛ ٢) أنّه شملَ لبنانَ بأسره لا أهدافًا تخصّ حزبَ اللّه وحده؛ ٣) أنّه كان يَستهدف، على خطى النموذج الرامسفيلدي المسمّى «الصَّدم والترويع،» شلَّ السيادةِ الوطنية والمجتمع والاقتصاد والسياسة في لبنان لجيلٍ قادم. فلقد قامت إسرائيلُ «بأكثر من ٧٠٠٠ هجوم جوّي و٢٥٠٠ قصف بحري، مركّزةً بشكل خاص على المناطق المدنية... وغالبيةُ الضحايا اللبنانيين الـ ١١٨٣ لم يكونوا مقاتلين، وأفادت التقارير بأنّ ثلثَهم من الأطفال» (**فاينانشال تايمز** ٢٠٠٦/٨/٢٣) ولم يقتصر الغزوُ الوحشي على الخسائر المدنية طبعًا (وهذه علامةٌ إسرائيليةٌ مسجَّلة في فلسطين) ولا على تهجير أكثر من مليون شخص من منازلهم، بل عمدتْ إسرائيل

غابرييلا بولبسوڤا

متْجر في الضاحية الجنوبية

إلى قصفِ ٨٠ جسرًا والاعتداءِ على محطّات الوقود وخزّانات المياه التي «لا قيمة لها عسكريةً واضحةً» بحسب منظمة العفو الدولية (المصدر السابق). ووجّهت الطائراتُ الإسرائيلية «ترسانتَها المتطوِّرةَ من الأسلحة الدقيقة إلى نسيج الاقتصاد اللبناني،» فقصفتْ ما لا يقلّ عن «٤٥ معملاً ضخمًا» للأثاثِ والمنتوجاتِ الطبيعية والقماش والورق والألبان. «وما لم يُقصف من الشركات تعطَّلَ عملُه بسبب الحصار الإسرائيلي.» وتَذكر **الفايننشال تايمز** أنّ الاقتصاد اللبناني «كان قبيْل القتال الذي اندلع [في تموز] يتّجه إلى أفضل سنواته منذ أكثر من عقد، فقد ارتفعت الصادراتُ بنسبة تفُوق ١٠٠٪ عن عام ٢٠٠٥، وازدهرت السياحة...» (٥ ـ ٢٠٠٦/٨/٦).

إنّ توسُّعَ أعمال إسرائيل لتَشملَ مناطقَ في الشمال والشرق، مستخدمةً كلَّ أنواع الأسلحة، يُظْهر أهدافَ الدولة اليهودية بدقّة، وهي: إعادةُ لبنان إلى الحرب الطائفية، وتحويلُ الطبيعة الكوزموپوليتانية للبنان إلى محض قتالٍ بين المسلمين والمسيحيين، بحيث تبدو الدولةُ اليهوديةُ «طبيعيةً» في المنطقة. وما فشلُ إسرائيل الساحق في هدفها الخبيث إلاّ دليلٌ على بدويّتها القَروسطية التي هي في صميم دولتها اليهودية، وعلى الطبيعة الكوزموپوليتانية للمقاومة الوطنية اللبنانية.

إنّ الاندراجَ السريعَ لحزب اللّه في نسيج المجتمع المدني والثقافة السياسية في لبنان، وهو اندراجٌ يماثل تقريبًا اندراجَ حماس في حركة التحرّر الوطنية الفلسطينية، سيَخلق نموذجًا لتعدُّديةٍ ديموقراطيةٍ تشكّل بالنسبة إلى المخطِّطين الأميركيين المحافظين الجدد ونظرائهم الصهاينة في إسرائيل خطرًا مرعبًا على استراتيجياتهم البربرية القائمة على إرهاب الدولة والغطرسةِ الإمبريالية ويُمكن بسهولةٍ تقليدُ النموذج اللبناني والفلسطيني في العراق بحيث يتحوّل الصراعُ الطائفي المفبرك هناك، والذي انبثق وتعزَّزَ عقب الغزو الذي قادته الولاياتُ المتحدة، باتجاه خلقِ حكومةِ توافقٍ وطني ستكون في ذاتِ نفسِها معاديةً للاحتلال الأميركي ـ البريطاني غير أنّ هناك ثلاثةَ أطراف تواجه مثلَ هذا الحلّ البنّاء في العراق أ ـ الولايات المتحدة وحلفاؤها الأوروبيون وشركاؤها الإسرائيليون؛ ب ـ تنظيم «القاعدة» الأميركيُّ الصنع والأفغانيُّ المَركز؛ ج ـ الجمهورية الإسلامية في إيران. كما أنّ الحركة الإصلاحية الوليدة قد تتمتّع بزخمٍ جديدٍ في الجمهورية الإسلامية نفسها إن تمّ تزْويجُها (أيِ الحركة) بحركاتِ التحرُّر الوطني التقدُّمية في لبنان وفلسطين والعراق والأمر نفسُه قد يَنطبق على الحالة المتخلِّفة الفاسدة المتمثِّلة في

حزب البعث في سوريا وأوتوقراطية النظام السوري المتقادمة. صحيح أنّ الغضب المشروع للمثقفين المعارضين السوريين قد انحطّ إلى مواقفَ مزريةٍ في تأييدها للأميركان بما يَجعل منهم أشبهَ بشركاء عجيبين للمحافظين الجدُد في أميركا وإسرائيل، غير أنّ المعارضة المشروعة نفسَها قد تكون جزءًا لا يتجزّأ من انتفاضةٍ وطنيةٍ [معادية للإمبريالية] ضدّ الأوتوقراطية المذكورة. وباختصار، فإنّ بمقدور لبنان وفلسطين أن «يصدِّرا» ثقافتَهما السياسيةَ الكوزموبوليتانية إلى العراق وإيران، بدلاً من أن تصدِّرَ الثورةُ الإسلامية وحُكمُ التوريثِ السوري الفاسدُ قبليَّتيْهما وثيوقراطيَّتَهما في الاتجاه المعاكس. غير أنّ إسرائيل (والولايات المتحدة) هي العدوّ اللدود لأيّ ثقافة كوزموبوليتانية كتلك. فإسرائيل ترى العالمَ على صورتَها القبليّة. إنّ الدولة اليهودية لا تستطيع إلاّ أن تتعامل مع نزعاتٍ ثيوقراطيةٍ شبيهةٍ بنزعاتها ولذا تحتجّ الدولةُ اليهوديةُ أكثرَ ممّا ينبغي على الجمهورية الإسلامية في إيران، وهذه تحتجّ أكثرَ مما ينبغي على تلك. غير أنّ على بقيّة العالم أن تبتعد عن الأوهام الجاهلة التي تكتنف القراءةَ الأوروبية ـ الأميركية للوضع الحالي، فترى كيف أنّ إسرائيل والجمهوريةَ الإسلامية هما في الحقيقة وجهان لعملةٍ واحدة، وأنّهما من ثم تحتاجان وتَطلبان إحداهما الأخرى. فكلا النظاميْن يريد العالمَ على صورته: قبليات رثّة في جهاز دولةٍ ثيوقراطي إنّ الولايات المتحدة وإسرائيل ـ الأولى إمبراطورية مسيحية والأخرى دولة يهودية ـ هما العدوّان الكونيّان للثقافات الكوزموبوليتانية التوفيقية، وهما تفضّلان أن تحيط بهما «القاعدةُ» وجمهورياتٌ إسلاميةٌ لأنّ هذه الأخيرة تثبّت ثقافاتِهما القَروسطية وعقليةَ «نحن في مواجهة هم.» إنّ الدولة اليهودية لا تؤكّد ضرورةَ وجود جمهورية إسلامية في إيران فحسب، بل ضرورةَ وجود جمهورية إسلامية في فلسطين وجمهورية إسلامية في لبنان أيضًا. وكلّما زادت الجمهورياتُ الإسلامية في جوار إسرائيل، شعرت الدولةُ اليهودية بالألفة

ـ ٥ ـ

السؤال الأساسي، قبل الخلوص إلى أيّ درسٍ مديد عقب الوحشية الإسرائيلية في تموز ٢٠٠٦، هو: كيف نقرأ ظاهرةَ حزب اللّه؟ فواشنطن، معقلُ المحافظين الأميركيين الجدُد، تُماثلُ بين حزب اللّه والإرهاب. والمراقبون الأوروبيون، الذين يُفترض أن يكونوا أكثرَ تقدُّمية، يُبْدون انزعاجًا واضحًا من ظاهرة حزب اللّه ويماهون بين المقاومة الوطنية اللبنانية ونزعةِ المغامرة العسكرية فالصحفي البريطاني المخضرم روبرت فيسك، مثلاً، لم يضيِّعْ فرصةً واحدةً لكي يذمَّ حزب اللّه، وليساوي دونما خجلٍ بين «فظائع حزب اللّه» و«الفظائع الإسرائيلية» (**الاندبندنت** ٢٠٠٦/٨/١١)، مصرّاً على أنّ «حزب اللّه هو الذي أثار هذه الحربَ الأخيرة،» ومحذِّرًا من أنّ الإسرائيليين، بغزوهم لبنان، «سيشرِّعون حزبَ اللّه .. الذي هو جيشٌ رثٌّ من العصابات المقاتلة» (**الاندبندنت** ٢٠٠٦/٨/٥) ـ وكأنّ هذا «الجيش الرثّ» كان يَفتقر إلى الشرعية قبل أن يمثِّلَ ويدافعَ عن كرامةِ جماهير لبنانية «رثّة» هي الأخرى من الفقراء والمحرومين!

من المحافظين الأميركيين الجدد إلى روبرت فيسك، كانت ظاهرةُ حزب اللّه اللبناني هي النقطةَ المركزيةَ لآلة البروپاغندا المدافعة عن إسرائيل. كانوا كلُّهم يتصرّفون وكأنّ ذلك الشيء المسمّى «حزب اللّه» سَقَطَ من السماء على الأبرياء اللبنانيين، فمنَعَهم من العيش بسلامٍ وازدهارٍ مع جارهم الجنوبي الديموقراطي المسالم السخيّ! لكنْ أليس مقاتلو حزب اللّه، واللبنانيون الذين يمثّلونهم، لبنانيين أيضًا؟ إنّ حزبَ اللّه ليس عصابةً من سكّان المرّيخ هَبَطوا على لبنان؛ إنّه في لبنان مثلُ «حماس» في فلسطين، ومثلُ «جيش المهدي» في العراق. كلُّها تمظهراتٌ سياسيةٌ لمكوّنات مقموعةٍ سياسيةٍ، ومحرومةٍ عبر التاريخ ـ هي مكوّناتٌ لحركاتِ تحرّر وطنية ثلاثٍ. إنّ المبالغة في التركيز على هذه الحركات وكأنّها محضُ تنظيماتٍ سياسيةٍ تَخْلط الحقيقةَ السياسية لهذه المجموعات المحرومة (من فقراءِ لبنانَ وفلسطينَ والعراق) بتمظهراتها التنظيمية العَرَضية إنّ بمقدور إسرائيل أن تَقْتلَ حسن نصر اللّه في لبنان وخالد مشعل في فلسطين،

غابرييلا بوليسوڤا

ملاك خالد من «حملة المقاومة المدنية» في مارون الراس

وبمقدور الولايات المتحدة أن تَقْتلَ مقتدى الصدر في العراق، غدًا (فقط لو استطاعتا ذلك) لكنّ عشرةً من أنصار اللّه والمشاعل والمقتدين سيُولدون في ضاحية بيروت الجنوبية وغزة والنّجف. فحزبُ اللّه وحماس وجيشُ المهدي تعبيراتٌ عَرَضيّة ثلاثةٌ عن ثلاثِ حقائق جوهريةٍ ومتجذِّرة سياسيّاً وديموغرافيّاً. إنّ فقراء جنوب لبنان (الشيعةَ بالمصادفة) قد حُرِموا تاريخيّاً من نصيبهم العادل في الحياة السياسية اللبنانية؛ ومثلهم الفقراء والمحرومون الفلسطينيون (المسلمون بالمصادفة)؛ ومثلهم الفقراء والمحرومون العراقيون (الشيعة بالمصادفة هم أيضًا) حزب اللّه وحماس وجيش المهدي ليست تفاهاتٍ مصنَّعةً ولا مجموعاتٍ من المغامرين المقاتلين شأن «القاعدة» التي خَلَقَها الحلفُ الأميركي ـ الباكستاني ـ السعودي بهدف قتال الروس ومنع انتشار الثورة الإسلامية الإيرانية نحو الشرق. حزب اللّه وحماس وجيش المهدي حركاتٌ شعبيةٌ إنّها عارُ حركات التحرّر الوطني في لبنان وفلسطين والعراق التي فَشِلت تاريخيّاً في إدراج الجماعات المحرومة الدونية المستضعفة ضمن مشاريعها التحرُّرية

أما بالنسبة إلى حزب اللّه تحديدًا، فمنذ اللحظة التي أَسقطتْ فيها الهمجيةُ الإسرائيليةُ قذيفتَها الأولى على أهدافها اللبنانية، تحوَّلَ الحزبُ من حركةٍ فئويةٍ شيعيةٍ مقاتلةٍ إلى جيشِ تحرّرٍ وطني. وإنّ تاريخ حركات التحرُّر الوطني كلِّها، من ڤيتنام إلى أفريقيا إلى أميركا اللاتينية، يَشْهد على أنّ هذه الحركات قد تنحطّ إلى أورامٍ عنيفةٍ أو قد ترتفع إلى حركاتِ تحريرٍ وطنيةٍ، وذلك بحسب ظروف تطوُّرها التاريخي وليس ثمة ما يساعد عصاباتٍ مقاتلةً على أن تَتزعّم القيادةَ الوطنية أكثرَ من غزوٍ عسكريٍّ وحشيّ تقوم به قوةٌ إمبرياليةٌ أو كولونيالية. ولنا في «الخمير الحمر» بزعامة پول پوت في كمبوديا، والجيشِ الثوريِّ بزعامة هوشي منه في ڤيتنام، مثالان صارخان على الانحطاط والارتفاع المذكورَيْن

لا مستحيلَ في عالم الإمكانيات السياسية أثمة خطرٌ، إذن، من أن ينحطَّ حزبُ اللّه اللبناني إلى محضِ فصيلٍ إيراني، فيختارَ أن يؤسلمَ حركة التحرُّر الوطني اللبنانية، ويعملَ على إنشاء جمهوريةٍ إسلاميةٍ في لبنان؟ أثمة خطرٌ أن تؤسلِمَ «حماس» حركةَ التحرُّر الوطني الفلسطينية وتنحطَّ إلى حدّ المطالبة بجمهوريةٍ إسلامية في فلسطين؟ أثمة خطرٌ أن يفعل الأمرَ نفسَه جيشُ المهدي في العراق؟ لا شيء سيُسْعِدُ إسرائيلَ وأنصارَها الأميركيين أكثرَ من أن يتحقّق هذا الكابوسُ، وسيَفْعلون كلَّ ما في وسعهم من أجل ذلك، أيْ من أجل تحويل حركات تحرُّر

دروس من لبنان: إعادة التفكير في حركات التحرر الوطني

وطني كوزموبوليتانية توفيقية (بملحظ أنّ حماس، عبر «وثيقة الأسرى» التي وقّعتْها، قد اعترفتْ، ضمنًا، بإسرائيل) إلى حركاتِ تعصُّبٍ دينيّ استبداديةٍ تبرِّر ـ في ذاتِ نفسِها ـ وجودَ دولةٍ يهوديةٍ إلى جوارها لكنّ ثمة حقيقةً أساسيةً من ثلاثة مشاهد مختلفة تَدْحض مثلَ هذه الإمكانية وتبشّر ببناء ثلاثِ ثقافاتٍ سياسية تعدُّدية وكوزموبوليتانية ستكون كابوسًا للدولة اليهودية والجمهورية الإسلامية والإمبراطورية المسيحية معًا. وأعني الحقيقةَ الديموغرافيةَ. ففي لبنان والعراق يشكّل الشيعةُ غالبيةً طفيفةً، وفي فلسطين ليست «حماس» إلاّ فصيلاً أساسيّاً من أربعة فصائل سياسية رئيسية أخرى. على حزب اللّه أن يشاركَ السُّنّة والمسيحيين والدروزَ، مثلما أنّ على الشيعة في العراق أن يشاركوا السُّنة والأكرادَ، وعلى حماس في فلسطين أن تشارك «فتح» و«الجهاد» و«الشعبيّة» و«الديموقراطية » وفي هذا المجال فإنّ الإسلاميين في لبنان وفلسطين والعراق نقيضُ الإسلاميين في إيران، حيث يشكّل الشيعةُ الغالبيةَ العظمى من مواطنيها إنّ التعدُّدية الديموغرافية المحظوظة في لبنان وفلسطين والعراق تَعْمل لصالح مجتمعٍ تعدُّديّ وثقافةٍ سياسيةٍ كوزموبوليتانية، في حين أنّ الغالبية الشيعية في الجمهورية الإيرانية (أكثر من ٩٥٪) تعطي الافتراضَ الخاطئ بأنّ المجتمع هناك مجتمعٌ «إسلامي» ـ وهو افتراضٌ خاطئ يُعزِّزه النظامُ و«معارضوه» المزعومون في صفوف الإصلاحيين، ويستخدمونه استخدامًا سياسيّاً فظّاً من أجل تدمير وتفكيكِ الثقافة السياسية الكوزموبوليتانية الإيرانية التي تضمّ الإسلاميين طبعًا لكنّها لا تقتصر عليهم وحدهم

إنّ هذه القراءةَ الطائفيةَ للسياسات الإقليمية لن تكون صحيحةً إلاّ إذا نظرنا إلى هذه الدول على أساس تقسيماتها **الطائفية** وميولها الطائفية، متجاهلين التاريخَ الطويلَ والشاقَّ لحركاتها التحرُّرية **الوطنية**. وفي لبنان وفلسطين والعراق، بل وفي إيران أيضًا، اضطرّ الإسلاميون إلى أن يَكْسوا مشاعرَهم الدينية بمصطلحات قومية واضحة ـ ومن ثم نرى القوةَ التحرُّرية لحركات التحرُّر الوطنية التي ما تزال تحرّك تلك البلدانَ من أجل النهوض في وجه كلّ المخطّطات الكولونيالية والإمبريالية التي تهدِّد سيادتها

لكنّ علينا بالمثل أن ننبِّه ثوريِّي «غوتشي» اللبنانيين العنيدين، أنصارَ رفيق الحريري ـ سمير قصير، الذين انحطّوا ـ فيما هم يُطْلقون دعواتِهم المشروعةَ إلى الانسحاب السوري من لبنان ـ إلى الاعتقاد بأنّ الولايات المتحدة حليفتُهم! فلتكن الأيامُ الـ ٣٤ الوحشية من القصف والمجازر الإسرائيلية، المدعومةُ من الولايات المتحدة وبريطانيا وحتى فرنسا، درسًا لثوريي «غوتشي» في لبنان ولنظرائهم السوريين بضرورة الربط المؤسّساتي بين قلقِهم الليبرالي (المشروع جداً) على قضية الطبقة الوسطى من جهة، وبين قضيةِ تحرُّرهم الوطني ـ بحيث تتوجّه قضيّتُهم ضدّ النظام السوري والإيراني بقدْر ما تتوجّه ضدّ إسرائيل والولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي (وبخاصةٍ بريطانيا التي سَمَحتْ للصواريخ الأميركية الصنع بأن تُرسَلَ عبر أجوائها ومطاراتها إلى إسرائيل لقتل المزيد من اللبنانيين) إنّ المحافظين الجدد الأميركان والإسرائيليين أو البريطانيين ليسوا أصدقاءَ أيِّ حركةِ تحرُّر وطني، سواء من الطبقة الوسطى أو غيرها. وإنّ الصور العملاقة لرفيق الحريري، والتمثالَ الأكبرَ من المعتاد لسمير قصير، تحتاج حاجةً ماسّةً إلى أن تعيدَ النظرَ فيها حركةُ تحرُّرٍ وطنيةٌ جماهيريةٌ تقدُّميةٌ وكوزموبوليتانيةٌ في لبنان ـ حركةٌ ينبغي أن يكون حزبُ اللّه على الدوام جزءًا لا يتجزّأ منها

د. حميد دبّاشي

أستاذ الدراسات الإيرانية والأدب المقارن في جامعة كولومبيا في نيويورك والمقال جزءٌ من مقالٍ أطول كتبه بالإنجليزية حصّيصًا لـ الآداب وترجمه رئيسُ التحرير ويمكن مراجعة النسخة الإنكليزية الأطول قريبًا في **Al-Ahram Weekly**.